ج. پ. كلارك

أغنيـــــة ماعـــــزة

هذا هو الفصل الاول، او «الحركة الاولى» كما يسميها المؤلف، من مسرحية «اغنية ماعزة» التي تجري احداثها في اقليم الدلتا في غربي نيجيريا. زيفا صياد للسمك ، فقد قواه الجنسية وامتنع عن معاشرة زوجته ابييره . تذهب هذه لاستشارة المدلك ، « طبيب » الناحية الشعبي الاعرج . ويبلغ بها اليأس حد اغواء طوني ، اخي زيفا الاصغر . وعندما يطلع زيفا على ذلك يحمل اخاه على شنق ذاته ، وبعدها ينتحر هو غرقاً .

المدلك : رَحمُك مفتوحةٌ ودافئةٌ كحجرة :
ينبغي ان تتسع لكثيرين .

ابييره : يبدو ، في الواقع ، انها ستبقى خالية .

المدلك : المنزل الخالي شيء خطر ،
يافتاتي . ان لم يقطنْه الرجال
قطنه الوطواط و العشب ، وهذا
انذارٌ باشياء اردأ تأتي من بعده .

ابييره : الذنب ليس ذنبي . انا ابقي منزلي
مفتوحا ليلا نهارا
لكن سيدي يأبى الدخول .

المدلك : لماذا ؟ من يصدّه ؟

ابييره : انا لا اقف في طريقه .

المدلك : قدماي متثاقلتان ، لكن عقلي غير متثاقل ؛
انه رشيق كالحَمَل .

ابييره : قلتُ ان منزلي مفتوح بابه .

المدلك : استطيع ان ارى ذلك . اخشى انه مفتوح
اكثر مما ينبغي . ان مجرى الهواء قد يحلّ فيه في اي وقت

الآن . فليدخل الرجل ويحمل معه دفأه .

ابيره : انا طبعا اريد دفأه .

المدلك : اذاً فالذنب ذنبه ؟

ابيره : ارجوك ان تسأله هو ، لعله يجيب .

المدلك : ألديه منزل في مكان آخر ؟

ابيره : لا .

المدلك : انه ليس عاجزا باي شكل ؟
اراك تلتفتين بوجهك نحو الحائط . تلك
امارة الموت ، يا فتاتي .

ابيره : آه كم اتمنى لو اموت ، لانهي كل
هذا العار ، لانهي عرضي لجاراتي
بدانتي بينما لحمي ميّت جوعا !

المدلك : هذا شيء فظيع ، يا فتاتي ، ينبغي الا
يعرف به احد . و كنت اظنّ ان هراوة شديدة
في متناول يدك لتتمسكي بها فتسندك .

ابيره : ليست هناك ، ليست هناك ابدا
بالرغم من شدتها وحجمها .
ليس في الهراوة الشديدة اي حياة .

المدلك : متى اكتشفت انه تنقصها
معجزةُ انباتِ اوراقٍ خضرٍ وثمار ؟

ابيره : بعد ذريتي الاولى والوحيدة في منزله .

المدلك : ومنذئذ لم تفعلي شيئا ؟

ابيره : وما الذي استطيع فعله ؟ ظننت انه مراعاة
لي ليس الا . فانا قاسيت
كثيرا في ولادتي لابني .

المدلك : اجل . ان بوابتيك على حالهما
اذ ان حارسهما لا يقوى حتى على لمسهما .
لا بدّ لاحدٍ ما ان يدخل والا فانهما ستصدآن .

ابيره : آ ، لا ، لا ، ليس هذا !

المدلك : نعم ، نعم ، لا بدّ من هذا . ايعرف والداك بهذا ؟

ابيره : لا ، لا اريد ان اسيء اليه ، انه طيب جدا
معي ؛ وفوق هذا ، كيف سيكون ردّ فعل اهله
واهلي انا ؟

المدلك : هذا صحيح ، يا طفلتي ، لكن
رغم هذا كان ينبغي ان تطلعي اهلك .
ليس عار في ذلك . لقد جرت
اشياء اسوأ فيما مضى . فالنمرة ايضا يعتريها الشلل .
ودعني اخبرك ، يا طفلتي ،
ان لكل علة تصيب الرجل
ورقةَ شجر في الغاب . ان كانت الاسرتان
تتبادلان الشعور بهذا الود الكبير ، فسيكون
حسناً ان يخوّلك زوجك
لرجل آخر في اسرته .

ابيره : كيف تستطيع ان تقول شيئا كهذا ؟

المدلك : اعرف ان فكرة كهذه لا تستهويك .
استطيع ان افهم ذلك .
فالواقع انك قد انطلقت لتوّك
في فجر الحياة الندي والضبابُ ساجدٌ كله
على الارض امامك . لكن عندما ترتفع الشمس
فسترين بوضوح اكثر . ينبغي ان يخوّلك
الى اخيه الاصغر . هذا سيربط العقدة
من جديد ، ولن يكون قطعاً للعقدة
او ارخاءً لها .

ابيره : ذلك سيكون فعل موت ،
وهو ما يمنعك الاموات عن التحدث عنه .

المدلك : افهم
شعورك ، افهمه بالتمام . لكنك
ما تزالين فتية كما قلت ، ولا
تعرفين عادات بلادنا . دمُ معزى
كبيرةٍ بحيث تدخل ودعةٌ عبر انفها ،

قربةٌ كبيرة من نبيذ البلح ، وثلاثُ حبات من
جوز الكولا مكسورة امام اموات
البلاد ، ويتم ما ينبغي فعله .

ابييره : اتركني ، اقول لك ،
ابعد يديك المعوجّتين عني . لن
البث هنا اطول لاسمع مثل هذا الكلام .
ان رأيتني على عتبتك مرة اخرى ، فادعُني
حمقاء حمقَ زيفا الذي ارسلني اليك
طلبا لعلاج يعرف انه غير ضروري .
هوذا قروشك . والآن دعني امرّ .

المدلك : لا يبلغْ بك الغيظ هذا المبلغ ، يا طفلتي ، انا جادّ
في اقتراحي ، وهو ليس اسوأ الاقتراحات .
(تخرج ويدخل شخص آخر مسرعا)

زيفا : ابييره ،
كانت هناك قبل لحظة . سمعتُ تنورتها تخشخش
في الريح وانا داخل ، لكن عندما ناديتها
همد وقع خطاها على العشب .

المدلك : أ أنت زوج التي انطلقت راكضة الآن ،
يا بنيّ ؟ لقد سمحتَ لتلك القطعة من التربة
الخصبة المعطاة لك بان تبقى بلا زرع
وتنمو بها الحشائش المتعالية .

زيفا : ما الذي تعنيه ؟

المدلك : بوسع كل امرىء ان يرى سنابل العشب
وشواشيَها من بعيد .

زيفا : أقالت لك شيئا ؟

المدلك : لا تخفْ ، يا بنيّ ، لم تقل المرأة شيئا .
الا ترى ان العشب كله
قد تفاقم جدا ، وانه عندما تعصف الريح
قد تأكله النار وإنْ تفرشْ من فوقه
عباءةَ الندى ؟

زيفا : لستُ طفلا فاشعل النار
بارضي كيما تخدشَها طيور الفضاء
وتلتقطَ اكلها .
الدلك : لقد فعلتَ ذلك ، وليس الذنب ذنبك ،
لكن كان عليك ان تطلب النجدة .
زيفا : تتكلم عن النجدة . اي نجدة يستطيع المرء ان ينتظرها
اذا كان في موقفي ؟ ليس احبّ
على الناس من ان يُعملوا مخالبهم فيّ
كما تُعملها الطيور في دودة تتلوى في الوحول . ماذا ،
أأظهر ذاتي بركةً جفتّ تماما
من الماء ، فتفلع قهقهاتُهم
ارضَ كياني ؟
الدلك : كل هذا حماقة ، يا زيفا . ليس ثمة
رجل بنى قط بيتا او عشّب
قطعةَ ارضٍ وحده بدون مساعد . كان ينبغي
ان تطلب العون وانت في ورطتك .
زيفا : هذه ورطة
لا تتيح اي عون .
ولن اكون رجلا
يفتح ذاته ليدوس فوقه الآخرون .
الدلك : اذاً فهي المرأة التي ينبغي ان تتحمل
الاهمالَ والتبذير ؟
زيفا : على المرأة ان تنتظر . قد يرجع
هذا الشيء في اي يوم ، من يدري ؟ الامطار
تهطل انى تشاء .
الدلك : لقد انتظرتْ طويلا ،
طويلا في الرياح العاصفة . ها الامطار
هنا من جديد والغابة اخذتْ
تتبلل . والارض سترتدي عما قريب ثوبها
الاخضر ، وستعبث الريح بوجنتيها المتوردتين

من الفجر الجديد . أستترك المرأة
تنتظر ساكنةً والعالمُ كله يتحرك
بالبذور ويعروه الطيشُ لانسياب العصارة ؟

زيفا : اعرف
كل هذا . ومن اجل هذا احاول ان اشحذ
سيفي على حجر الصوان كيما اعشّبَ الأرض . أأنا
الملومُ لاني لا استطيع ان ارفع يدي البدون حياة ؟

المدلك : فيضاناتٌ ثلاثة قد مضت على رجائك .

زيفا : اجل ، اجل ، هذا صحيح جدا ،
اعترف ان الامر كان هكذا طوال هذي الانهارات العديدة
للفيضان ، مع انه عندما قام فيضان جديد ارتفع قلبي
معه لكنه خُلّف على الارض من جديد .

المدلك : حتى متى سيبقى الرجاء ؟

زيفا : لن اتنازل عن قطعة ارضي !

المدلك : يتعلم المرء ان يستغني عن الاقنعة التي لا يستطيع
ان يلبسها بعد ، وتنتقل الى مَن هم بعده .

زيفا : ما الذي تعنيه ؟ لا استطيع
ان اتتبع مجرى كلامك .

المدلك : في وضعٍ
كوضعك قد يقنع المرء بالانسياق مع التيار كما تفعل
حشائش الجدول . لكنه لا يبتعد كثيرا
جدا ، لان التيار يرتدّ دوما عليه .

زيفا : ما الذي كنتَ تقوله
لزوجتي ، ايها الرجل ؟ لقد ارسلتُها اليك كي
تدلكها ، لا كي تقلبها ضد زوجها .

المدلك : هذا ما تظنه ، ايها الشاب . ان تمسكتْ
زوجتك بالامانة لحد الحماقة ، فهذا
شأنك وشأنها . لكن لماذا توجّب عليك
ان تبعث بها اليّ لاعطيها علاجا لتلد
في حين ان النقص ليس فيها هي . سواي

كانوا ليأخذون الاجار منك ، ربما ، ويوافقون على اعانتك
في ابقاء الرماد فوق العيون . لن اكون
واحدا منهم . ماذا ، أأترك الناس يظنون انها لم تستطع
ان تستجيب حتى للمسة اصابعي ؟
فكّر ،
يا رجل ، ان فيضاناتٍ ثلاثةً قد مضت كما قلت انت نفسك

زيفا : كان على سواها ان ينتظرن زمنا اطول . ان زوجة
أوغون معروف انه كان عليها ان تنتظر سبع سنين
كيما تنجب طفلا . وفي هذه الاثناء قد
استعيد قوتي .

المدلك : لا ، هذا ما اخشى
انك تخطىء فيه بحقها . ان أوغون لم يحجم
قط عن فلاحة الارض
التي كانت له . لكنما ، في حاله هو ، لم تكن الارض
تنبت شيئا . فانا اذكر ما جرى
بتمام الوضوح ، اذ كان عليها ان يستدعياني
لازيل اللعنة التي انصبّت عليها . وقصصتُ
اثرَها الى اسفل شجرة في
الطرف الآخر للغابة الشريرة ، وهناك
فـرّغ الحمّل ودُفن
في شقّ شرشَيْن توأمين .

زيفا : كيف لا اذكر !
مشت البلدة كلها في اثرها وهي ترقص في مشيتها
الى جذر المشكلة واصلها . ابقتنا نحن الرجال
ندقّ الطبول اليومَ كله ؛ اجل هذا ما فعلته . لكنها في النهاية
وضعتْ طفلا .

المدلك : وتبين انه
طفل صحيح سليم جدا . كان يستأهل الانتظار
مدةَ اقمارٍ عديدة . وما زالوا يحضرون لي
كلَ موسم هدايا من اليام والسمك .

زيفا : آه ، لماذا لا يتيسر لنا نحن الرجال
علاجٌ كهذا ؟ اني لاعطي الآلهة واجدادي
اسمنَ ثور في البلاد ان عدتُ
القهقرى واقصيتُ عني لعنتي .
اريد ان يكون لابني اخوة
واخوات . ليس صحيحا انني لا اعبأ .

المدلك : استطيع ان ارى انك تعبأ فعلا . ليس من
لا يستطيع ان يرى ذلك . انت تشتري لزوجتك اجودَ
الحرير ، وتدقّ لها احسن الذهب ،
وليس من لا يستطيع ان يرى انها تنال خير طعام .
غير اننا نسمّن فتياتنا كيما نعدّهن للاثمار ،
لا كيما نحرمهنّ .

زيفا : انا لا احرمها ؛
اني انا الذي يصيبني الحرمان .

المدلك : اذاً فما الذي تقترح ان تفعله ؟

زيفا : لقد ذهبتُ الى جميع الخبراء ما بين المستنقع
والرمل . لم يستطع أيّهم جميعا
ان يفعل اكثر من ان يقترح ان اتقبل لعنتي واتكيف معها .
اللعنة ! ان ابي الذي لم يكونوا
يجرأون على البصق عليه وهو على قيد الحياة ميت
ويرقد في الغابة الشريرة. أ لم يكن
ذلك عقابا كافيا ؟
لقد استعدتُه ، بالطبع ،
للبلدة كي يتمكن من تقبّل الذبائح
زمنَ الاعياد .

المدلك : افكر في بداية الرجل ، في نهايته ،
ويتّسع رأسي كثيرا . لقد عرفتُه جيدا
ان كان في الارض كلها قاتلٌ
للسمك وآخرُ للسلاطين ، فقد كانا
هو وانا . اسأل اي امرىء في الانهر

السبعة كلها .

زيفا : أأنا الملوم
ان كان لم يأتِ لشباكه غير السمك ؟

المدلك : لا بالطبع . لقد فعلتَ ما كان
ليفعله اي ابنٍ مطيع عندما اعدَته
لبيته بين اهليه .
ربما بكّرتَ قليلا بهذا
لشخصٍ مات باللوثة البيضاء .

زيفا : ومن اجل هذا مصمصوا لحمي
حتى العظام ، كما تفعل الاسماك لجثّة طافية .
يتذمر آخرون انه كان في زمن
الفيضان . سيكونون على اتم الاستعداد جميعا الآن
ان يضحكوا ان سمعوا اني قد صرت
مستنزَفا من رجولتي .

المدلك : لقد صنع الله شجرة
الآبا مستقيمة ومنتصبة .

زيفا : لقد سمعتُ
هذا الكلام كله من قبل . ما اريده
منفذٌ ما ، طريقٌ ما تقودني
خارج هذه الرقعة المحروقة من الارض

المدلك : هنالك منفذ حدثتُ زوجتك
عنه قبل قليل .
لكنك شهدت بذاتك ، شهدت الآن كيف كادت
الدجاجة تهدم البيت برفّ
جناحيها . فاذا رفرف الديك نفسه ، ربما
انهارت الجدران ، وانا طاعن في السن فلا
استطيع ان ابدأ ببناء السقف من قشٍّ اخضرَ لشعري الشائب

زيفا : اسمعْني ما قلته .

المدلك : لا ، من الافضل ان تذهب
اليها اولا ولا ترفع عاليا جدا

قنبرتك . فالمرأة المسكينة في حال تفكير .

زيفا : لا استطيع ان انظر اليها واضع عيني بعينيها ما دام سرّنا قد انكشف .

المدلك : ان سرّكما لم
ينكشف وسيظل محفوظا .

زيفا : بعد هذا سيقول كل واحد — انظروا
هوذا الديك بقنبرةٍ حمراءَ متوهجة
لكن المس الشيء وستجدونه
ابردَ من انف الكلب .

المدلك : لا حاجة لك
بان تعذب نفسك ويصل الغيظ بك هذا الحد ، يا زيفا .
وما دمتُ قد تعرفت اليك ، فلأقلْ لك
اني دلكت اباك عندما كان
كلانا لدنا وقويا معا وبوسعنا
ان نقذف في ساحة المصارعة
باي متحدّ . في كل ذلك الوقت لم اطلع
احدا على سرّ آخر . ولماذا
اطلعه على سرّك ، انت الذي ساعدتُ على احضاره لهذا العالم
والذي احب ان اراقب حظه في الحياة
كما يراقب ابٌ حظّ ابنه .

زيفا : سامحني ، يا ابي ،
ان التفكير باشياء كثيرة جدا يبعث
فيّ الجنون . لا اريد ان يتم بيني وبين زوجتي
الفراق . هي ذاتها لن توافق عليه .

المدلك : كيف تعرف ذلك ؟
أفكرتَ قط انه ينبغي لشخص آخر
ان يضطلع بفلح التربة
الخصبة ، فقذفتْك بوحل مبلل ؟

زيفا : ايها الشيء الاعرج ، يا قطعة تدبّ
من اللحم الذابل لها روح كروح افعى ،

أأسحقك بين راحتيّ وامسح
الارض بوجهك ، ايها الاضعف
من طير الارض الذي يمرّغ منقاره في التراب بعد الاكل . أألوي
رقبتك المصنوعة من الليف ؟ كيف تجرؤ ان تقترح
عليّ شيئا كهذا ؟ اني قوي
وما زلت حيا ، وهل تجرؤ ان تفتح فمك
القذر لتقترح ان ارهن ارضي ؟

المدلك : ان الغيظ يتآكلك، ولكن وان
سحقتني ، انا الكسيح ، بين يديك
القويتين ، فان هذا لن يحل مشكلتك . ما
أقترحه لم يمنعه آباؤنا حتى في ايام
القدم . الا ترى ان فرس النهر يحتاج
للزورق ، ويحتاج للمجداف ايضا .

زيفا : ايها القاذورة ، ايها الروث ، ايها الادام المقطّر عند الظلام ! انا
فرس النهر ذاك . أبصقُ ، لكن البصقة تسقط
على رأسي .

المدلك : لا سمحت الآلهة . اعرف
انك منهك كثيرا ، يا بنيّ ، لكن ذلك
لان هذه اللعنة منصبّة على رأسك .
حقا ان عليك ان تذهب الآن وتفكر
باقتراحي . التربة مقدسة
ولا يحق لاي رجل ان يتصرف بها لوحده . ينبغي
ان تجتمع معا اسرتاكما
وتستعرضا الامر .

زيفا : وهذا كل
ما تستطيع ان تقدمه من مساعدة ؟ يقولون ان الخشب
المعوجّ يعرف الناحت البارع .

المدلك : ليس عندما تكون الشجرة
قد تيبّستْ ، يا بنيّ .

زيفا : آه يا ابيره ،

يا زوجتي ، يا زوجتي . أهذا ما وصلنا اليه ؟
وماذا سيحدث لي ؟
طبعا ، عليهم ان يقتلوني اولاً .

المدلك : لا تفكر
بالامر بهذا الشكل ، يا بنيّ . البعض يَفلحون ، لكن على
سواهم ان يمسكوا الطير والسمك . لكل نصيبه
واغنيته الخاصة .

زيفا : سأموت اولا .

المدلك : لا ، هذا كلام اطفال . حتى انا ،
الكسيح باكثر من شكل واحد ، اعيش
وارجو ان احقق مأربا لشعبي .
لماذا تتحدث اذاً عن الموت ؟ على المرء
ان ينفق اولا كل شيء قبل ان يتكلم عن العودة
الى منزله . عد اذاً لبيتك الآن والى زوجتك
وتصرفْ حسب هذه الامور .

زيفا : من اجلها ومن اجل كل شيء
احيّيك ، وأذهب الآن .

المدلك : اذهب اذاً ، يا بنيّ ، وليحمِك
الآلهة والاموات .

زيفا : لتبقَ بخير ، يا ابي ، ولا تنسَني عندما
تقدم لهم تقدماتٍ وضحايا .

المدلك : يقيناً لن انساك في صلواتي .
هوذا رجل عميق وهائج
كنهرٍ تحتَ ارض . عساه يُبقي
الغطاء مسدوداً على زوجته فاني اخشى
انها قد بدأت تتبرم . آه ايها الاموات
والراحلون ، خذوا شحمَكم واللحمَ
ولكن ابقوا لنا جلْدَنا والعظام .